المستشرق لويس ماسّينيون

ما له وما عليه

عبد الرزاق الأصفر[1]

مقدمة :

***هذا** البحث يتناول السيرة الذاتية، والنشاط العلمي والديني لعالم فرنسي مستشرق هو لويس ماسينيون. وهي مستقاة باختصار من كتاب عنوانه:"لويس ماسينيون والاسلام".قام بتأليفه الكاتب الفرنسي بيير روكالفPIERRE ROCALVE، ونشره المعهد الفرنسي في دمشق سنة 1993م.*

لويس ماسينيون (1883–1962) LOUIS MASSIGNON

وُلد لويس ماسينيون عام 1883م في بلدة نوجنْت المارن[2] بفرنسا، لأسرة ذات مستوى ثقافيّ مرموق. وتعاوَن، وهو في الرابعة عشرة من عمره مع بعض أصدقائه في المدرسة الثانوية، على إصدار مجلّة صغيرة سمَّوها "نحلة فرنسا". وارتحل مع والديه إلى ألمانيا والنمسا وإيطاليا والجزائر. وفي عام 1901 نال شهادة البكالوريا- فرع الآداب والرياضيات، ثم نال شهادة إجازة في الآداب فيما بعد.

أدى خدمته العسكرية في مدينة روان بين عامي 1902- 1903، ثم زار الجزائر والمغرب وتابع دراسته العالية في التاريخ في معهديْ الدراسات العليا وكوليج دو فرانس ومدرسة اللغات الشرقية. وشارك لأول مرة في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في الجزائر عام 1906. حيث التقى بغولد زيهر، وماتير لامبير وغيرهما. ودَرَس اللّغة العربية، الفصحى واللغة العاميّة، وأصبح عضواً في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة. ثم أخذ ينتقل بين البلاد العربية فزار البصرة والمحمَّرة وبغداد، حيث قام ببعض المهمات لصالح دولته، والتقى عدداً من الباحثين مثل محمود

---

[1] باحث من سورية.

[2] NOGENT – SUR- MARNE.

شكري، ورؤوف الجادرجي، ومحمد جلبي، وحمدي بك مدير الآثار العراقية. وفي عام 1908 شارك في أعمال المؤتمر العالمي للمستشرقين في كوبنهاغن، ثم زار القسطنطينية وبدأ دراساته حول الحلاّج.

وفي مصر عُيِّنَ عضواً في المعهد الفرنسيّ للدراسات الشرقية بالقاهرة. واكتسب صداقة حسين وصفي، ورشيد رضا، وعلي بهجت، ثم سافر إلى بريطانيا حيث نشر في بعض المجلات أولى كتاباته عن الحلاّج والحلاجيّة.

وفي عام 1912 شارك في مؤتمر المستشرقين في أثينا، والمؤتمر الرابع للتاريخ والديانات في لندن. وفي عام 1914 تزوّج وقضى مع عروسه شهر الزفاف في صحراء الجزائر وبسكرة وتوغرت. ثم تطوع، أثناء الحرب العالمية الأولى، في الجيش الفرنسي، ليعمل مترجماً برتبة مرشح ضابط وأُرسل إلى الدردنيل. وقام بمهماتٍ عديدة للجيش ووزارة الخارجية ومنح وسام صليب الحرب.

وفي عام 1916 شارك في أعمال اللجنة الفرنسية في اتفاقية سايكس بيكو في إنجلترا. ثم عاد إلى مصر حيث قام في بورسعيد والقاهرة وجدّة بمهماتٍ سياسية لصالح الخلفاء، والتقى اللّنبي وكلايتون رئيس المكتب العربي والشريف حسين والأمير فيصل ولورانس وعبد الله فيلبي وحاييم وايزمن. وقضى عدة شهور في القدس، وهي تحت الاحتلال البريطاني. ثم شارك في إعداد اتفاقية كليمنصو-فيصل عام 1918.

وعاد بعد انتهاء الحرب إلى أعماله العلْميَّة وبحوثه ومحاضراته في مراكز البحث وفي العواصم والجامعات في البلاد العربية وتركيا وإيران والهند والبلاد الأوربية؛ فكان دائم التنقل والتجوال لا يهدأ ولا يقرّ في مكان. وقد تنقّل بين هذه البلاد مراراً كثيرة وهو يبحث عن المخطوطات والمصادر ويقابل العلماء. وفي الوقت نفسه يقدم خدماته ومشورته للدّول المحتلة فيما يخص الإسلام والشعوب الإسلامية والعرب.

وفي عام 1924 انتخب عضواً في الجمعية الآسيوية الملكية في لندن، وفي أكاديمية العلوم السوفيتيّة. وفي عام 1928 بُعث مرة أخرى إلى الشرق لأجل دراسة تطور الأوساط المسلمة في فلسطين والعراق وسورية، وتطوُّر الدراسات العليا فيها والتنظيمات الحرفية والعمالية. وكان دؤوباً في البحث عن مصادر جديدة عن الحلاّج. وفي عام 1930 زار قبر الحلاج ببغداد وقبر ابن باكوية الشيرازي في طهران ومدينة البيضا مسقط رأس الحلاج. وشارك في محاولات تبنّي الأحرف اللاتينية عند العرب والفُرْس كما هو الأمر في تركيا.

وفي عام 1933 عُيِّن عضواً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة. وفي عام 1934 شارك مع ماري كحيل في دراسة جماعة "البَدَليَّة" في دمياط؛ وهي جماعة دينيّة كانت تحاول التوفيق بين الإسلام والمسيحية في التقائهما بالإبراهيميّة. وزار مرة ثانية -بل مراراً عديدة- قبر الحلاج وقبر سلمان الفارسي وكربلاء والنجف والكوفة وبيروت ودمشق واسطنبول. وفي اللاذقية...

التقى بالشيخ سليمان الأحمد، واستفاد منه كثيراً من المعلومات في دراسته لطائفة النصيرية.

وفي عام 1938 زار المنصورة ودار ابن لقمان وعواصم عربية عديدة وتركيا. وشارك في مؤتمر المستشرقين الألمان، حيث ألقى بحثاً عن الشّيعة المتطرّفين في نهاية القرن الثالث الهجري، كما شارك في المؤتمر العشرين للمستشرقين في بلجيكا.

وحينما نشبت الحرب العالمية الثانية عاد فوضع نفسه تحت تصرف الجيش الفرنسي، فرافق الجنرال ويغاند، وحضر معه حفلة زفاف شاه إيران بأخت الملك فاروق. وخَدَم في الأركان العامة برتبة رئيس كتيبة العاملين في قسم ما وراء البحار، ثم معاوناً لجيرودو وزير الإعلام.

وانتخب عضواً في الأكاديمية الإيرانيّة. وفي فرنسا اعتقله الألمان مدةً ثم أطلق سراحه. وعاد إلى بلاد الشرق ليلقي محاضراته. وفي أثناء الحرب التقى هاشم الأتاسيّ وشكري القوتلي وسعد الله الجابري وفخري البارودي وأحمد الشراباتي. وزار أفغانستان، وعيّن عضواً في الأكاديمية الأفغانية. ثم سافر إلى الهند وزار جامعاتها ومعاهدها الإسلامية، كما زار قبر المسيح المزيّف هنالك. والتقى نهرو ومُنع من زيارة غاندي في السجن، ورفض زيارة محمد علي جناح الزعيم الانفصالي.

وبانتهاء الحرب الثانية عاد إلى نشاطه الاستشراقي ومحاضراته ودراساته. وعُيِّن رئيساً لهيئة امتحانات الأغريغاسيون في الدراسات العربية وبقي فيها عشر سنوات.. وفي عام 1947 هاجمته الصحافة المصرية متهمةً إياه بأنّه صديق العرب والمسلمين المزيّف.

وباشتعال حرب فلسطين وخروج الفلسطينيين وإعلان دولة إسرائيل صار له مجال جديد للعمل والمهمات؛ فكثرت زياراته لفلسطين ولا سيما القدس والخليل وبيت لحم. وأدّى خدمات للدولة الفرنسية وقدّم تقارير عن مهماته لوزارة الخارجية. وظهر متعاطفاً مع العرب من الناحية الإنسانيّة وزار مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. وكما أبدى إعجابه بغاندي وموازرته له، كما آزر نضال الشعب في المغرب لإعادة السلطان إلى العرش. وشارك في باريس في الصلاة على الضحايا المسلمين الذين قتلوا في إحدى التظاهرات، وتآزر مع سارتر ومورياك للمطالبة بإنصاف الشعوب المستعمرة والدعوة إلى السلام. وفي إحدى التظاهرات تلقى ضربةً على عينه أفقدته بصرها وذلك عام 1957.

سافر في عام 1952 إلى الولايات المتحدة وكندا، وألقى هنالك عدداً من المحاضرات. وحضر المؤتمر الثاني عشر للمستشرقين الألمان، وصار رئيساً لجمعية أصدقاء غاندي، ورئيساً لجمعية العفو عن السجناء السياسيين عبر البحار. ثم تقاعد من العمل في الجامعة وكوليج دو فرانس، وسافر إلى الشرق متفرغاً لدراساته الاستشراقية، فزار مدغشقر ونيروبي وأوغندا ثم مصر والجزائر.

وفي عام 1956 منحه الملك محمد الخامس الوسام العَلَويّ.

وفي عام 1958 زار الجنرال ديغول رئيس الجمهورية الفرنسية، كما زار المهدي بن بركة في سجنه. ثم أعاد الكرّة إلى مصر وبيروت والقدس والخليل ودمشق موالياً بحوثه ومنشوراته ومحاضراته.

وتوفي في باريس في 62/10/13 إثر نوبة قلبيّة، وقد شارف الثمانين من العمر.

ومن خلال ما تقدم تجلّى لنا من ماسينيون وجهان من أنشطته، الوجه السياسي المسخّر للدولة، والوجه الاستشراقي في محاولاته الكشف والدراسة لكثير من جوانب التراث العربيّ والإسلامي.

وثمــة وجــة ثالث لماسينيون هو الوجه الدينيّ، الذي لزمه طُوال حياته، وبذل لأجله كثيراً من الفعالـيات. فهو قبل كل شيء رجل دين كاثوليكي يحاول، بشكل ما، وعن طريق دراساته الموجهة إلـى الديـن الإسلاميّ، أن يقدّم خدمةً للكنيسة الكاثوليكية، فقد كان مؤازراً لمؤسسة شارل فوكو في مونمارتـر، وهـي مؤسسة تبشيرية، وألقى محاضرة عن فوكو بعد وفاته، وعن موقع مؤسّسته من القضية الإسلامية، وذلك في مراكز الدراسات بسان لويس وبحضور عددٍ من الكرادلة.

وكـان مـؤازراً لجماعـة القلبَيْـنِ الأقدسين الكاثوليكية التبشيرية، كما كان دائم المشاركة في المؤتمـر العالمـي للمؤمنيـن، ومحرراً في مجلة "الإله الحيّ"، وعضواً دائماً في مؤتمرات تاريخ الأديان. وله محاضرات في "الإيمان بالمسيح وعالم اليوم" في جمهور المثقفين الكاثوليك. وشارك في تألـيف هيـئة التعاون المسيحي الإسلامي، وترأس هيئة حجّ الصداقة المسيحية الإسلامية في لندن. ورُسـمَ أسـقفاً فـي القاهرة ، فكان يحرص على حضور القداسات، وإحياء ليالي العبادة، وممارسة الصَّوم مع غيره مؤازرةً لبعض القضايا.

وقـد بذل جانباً من جهوده لدراسة ظاهرة "أهل الكهف"، التي وردت عند المسيحيين والمسلمين وتجلياتها الإيقونيّة ودلالتها الدينية.

وكـان لهـذا الوجه الدينيّ من فعّالياته ونشاطاته تأثير في مؤلفاته ومنهجه. فمن خلال اطّلاعه الواسـع علـى الـتراث الإسـلامي، ومعرفته العميقة والشاملة للمجتمع العربي والبلاد الإسلامية، وصداقاته مع شخصيات دينية وعلمية في الشرق، كان يحاول دوماً التقريب بين الإسلام والمسيحيّة. ويبحـث عـن نقاط اللقاء والتشابه والتأثير ليصل إلى جوّ من التعاون والتعارف والتحابّ بين أهل الديانتيـن... ولنا أن نتساءل هل كانت جهوده موجّهة بالدرجة العظمى إلى خطاب المسلمين؟ وهل كانـت أعمالـه تنصبّ في خدمة التسويغ الاستعماري وقبول الحضارة الأوربية المسيحية في عالم الإسـلام الشديد الحذر والارتياب؟. وهل أثّرت جهوده الدينية هذه على منهجيته العلميّة وموضوعيته وحـياده؟ في الحقيقة انتقدت الأوساط العلمية الاستشراقية منهجه هذا، كما شكك كثير من الدارسين والمثقفيـن العـرب فـي مصـداقيّته، ولا سيما حين كانوا ينظرون إلى خدماته الرسمية في الجيش الفرنسي ووزارة الخارجية، ودخوله في ميادين السياسة الغربيّة في الشرق العربيّ والإسلاميّ، وإنْ كان يحاول دوماً إظهار الصداقة للعرب والمسلمين..

ومن نتائج محاولاته هذه تَوصّل إلى إلقاء الضوء على الديانة الإبراهيمية، فمحمد (ص) ينتمي إلى إسماعيل وإبراهيم، ويقرّ بإسلام إبراهيم وحنيفيّته، ويعلن بصراحة أن الإسلام ملة الأب إبراهيم، ويعطي مجالاً كبيراً للإبراهيمية في عقائده وشعائره.

ومـن جهـة ثانية راح ماسينيون يبحث في النصوص الإسلامية، والعقائد والطقوس والأدعية

والخـــرافات، عن قاسمٍ مشترك بين المسيحية والإسلام. ووجد ذلك في التصوف الإسلامي والحلاّج والفــرق الشــيعيّة المتطرفة.وكما حاول المقاربة بين مَرْيم وفاطمة (في منظور بعض الفرق)، كما بحـث عــن تأثـير الأفلاطونية الحديثة والتوراة والإنجيل في الفلسفة والتصوف الإسلاميين. وركز جهوده على قصّة أهل الكهف، لإثبات مفهوم البعث من الموت والعودة إلى الحياة، أيْ مفهوم القيامة المسيحيّ. وألقى الضوءَ على سلمان الفارسي، الذي كان مسيحياً قبل إسلامه، وكان في خدمة بعض الكهـنة المسيحيين. وأصبح له دور هام بعد إسلامه حتى لقد شهد الرسول له بأنه من آل البيت، ثم تمتّع بتقديس خاصّ عند الشيعة.

أمــا جماعة (البدليّة) التي أسَّسها في دمياط، ثم أصبح لها بعض الفروع، فقد تركزت جهودها على استيعاب مسيحيين ومسلمين في إطار التوفيق الإبراهيمي. وكانت لها اجتماعات وأنشطة ثقافية ودينــية تجمــع بين ما هو مسيحي وما هو إسلامي. وفي كل اجتماع كانت تتلى بعض سور القرآن الكــريم ولا ســيما سورة مريم وآل عمران والكهف والفاتحة. وقد ظلت علاقته بهذه الجماعة وثيقة طوال حياته، وكان يوالي مراسلتها حتى لقد بلغت رسائله إليها أربع عشرة رسالة.

ولــنلاحظ اختياره دمياط مقراً لها وزيارته دار ابن لقمان في المنصورة التي سجن فيها لويس التاسع إثر فشل حملته الصليبيّة على مصر.

من مؤلفات ماسّينيون:

أ-الكتب:

1-مهمّة في ما بين النهرين، مجلدان، مركز الدراسات العربيّة والشرقية في القاهرة.
2-بحث في الأصول اللغوية لمصطلحات التصوُّف الإسلاميّ.
3-مخــتارات مــن نصــوص غــير منشــورة تخــص تــاريخ التصــوف في بلاد الشام. (غوتنر/ 266ص)
4-هجرة إسماعيل.
5-حولية العالم الإسلامي؛ بالاشتراك مع ف. مونتيي P. U. F.
6-أخبار الحلاّج.
7-الطواسين.
8-ديوان الحلاّج.
9-عذاب الحلاّج، المتصوف الشهيد في الإسلام (Passion). في أربعة مجلدات.
10- دروس في تاريخ المصطلحات الفلسفية العربية- القاهرة.

ب-المقالات والمحاضرات:

كتب ماسينيون ونشر عدداً كبيراً من المقالات وألقى عدداً كبيراً من المحاضرات، ولو جمعت لجاءت في مجلدات.

ونقتصر فيما يلي على ذكر بعض ما يتعلق منها بالدراسات الإسلامية:

1- المغرب والغزو العربي.

2- الطريق إلى فاس.

3- المغرب في أوائل القرن السادس عشر حسب رؤية ليون الأفريقي.

4- قبور الأولياء في بغداد.

5- المكتبة الإسلامية في بندر بوشير.

6- غوته والإسلام.

7- لهجة بغداد العامية.

8- تاريخ المذاهب الفلسفية العربيّة.

9- زمن تأليف رسائل إخوان الصفا.

10- النصيرية في سورية، أصولهم وتوزّع عشائرهم.

11- تأملات قرآنية وأصول المصطلح الصوفيّ

12- الصهيونية والإسلام

ماسينيون والإسلام:

لمّا عرف ماسينيون الإسلام تأثر به أشدّ التأثّر، فقد اقتنع برسالته كما اقتنع برسالة المسيحيّة، واعتقد صحته دون أن يصبح مسلماً. آمن بأن الإسلام دين سماوي، وأن محمداً نبيّ والقرآن كتاب إلهيّ أوحاه الله إليه بوساطة جبريل. وأنه دين الفطرة والبساطة ودين التأمّل في الطبيعة والخلق وتوحيد الإله، وأنه كاف لكلّ حاجات الإنسان. وأنه ليس ديناً جديداً بل مكمّل لما سبقه من الأديان التوحيدية، فهو دين إبراهيم حنيفاً مسلماً ودين كل الأنبياء. وكلمة الإسلام -بمعنى الانقياد والطاعة- تنطبق على كل الأديان السماوية، وكلمة مسلم تنطبق على كل الأنبياء. وإبراهيم أبو الأنبياء وإمامهم والله إله الجميع، ولإبراهيم منزلة خاصة في الإسلام؛ فمحمد من السلالة الإبراهيميّة شأنه في ذلك شأن كل القبائل المستعربة، وإسماعيل هو الولد الأكبر لإبراهيم والذي حُرم من خلافة والده، وأقصي مع والدته هاجر إلى مكة لحكمة يعلمُها الله. وحين أودع إبراهيم أسرته في مكة أقام بيتاً لله ودعا ربّه **﴿ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتبْ علينا إنك أنت التوابُ الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾**. (البقرة 129).

ودعا إبراهيم بأدعية أخرى، واستجاب الله دعاءه برسالة محمد إلى العرب، الفرع الإبراهيمي المُبْعد المهاجر المحروم من النعمة، الذين يسميهم ماسينيون الإسماعيليين، ويسمي دين الإسلام الإبراهيميّة ومع ذلك فهو دينٌ عالميٌّ، وليس ديناً محلّياً خاصاً كاليهودية. والمؤمنون أمة واحدة: ﴿إن هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ (أنبياء 92). وكلهم يؤمنون بالميثاق الذي أخذه الله على البشر وبالدينونة.

والمسلمون يؤمنون بالمسيح، ورسالة وقداسة وطهارة مريم العذراء، وعودة المسيح يوم الدينونة ولقائه مع المهديّ.

والقرآن واحدٌ موحِّدٌ، يبرئ مريم وابنها من الإثم ومن الشيطان الرجيم. ومحمد نبيٌّ صادق أمين وهو المُبَشَّرُ به، وهو خاتم الأنبياء، وليس بعده إلاّ الأولياء والمقرّبون.

ولم يقل محمدٌ عن نفسه شيئاً سوى أنه عبدٌ مُرسَلٌ يُوحي إليه، اقترب من الحظيرة الإلهية وبقي عند الأعتاب، فلم يدّعِ الاتحاد والحلول، بينما تجاوزها الحلاّج فتجاوز بذلك الحدود المشروعة فقُتِل بسَيْف الشريعة وصُلِب...

ويرى ماسينيون أن محمداً هاجر في سبيل الله، كما هاجر من قبلُ إبراهيم وزوجُه هاجر وابنه إسماعيل.

حمل ماسينيون على عاتقه قضية التقريب بين الإسلام والمسيحيّة، وهو الوحيد في ذلك بين المستشرقين المسيحيين. وجمع بين مسيحيّته العميقة كرجل دين وبين تقديره للإسلام، ووجد في دراسة التصوف الإسلامي خير طريق لاكتشاف التقارب والتشابه بين الدينين. كما وَجَد أن إبراز شخصية الحلاج الصوفي المسلم الشهيد خير ما يوصّل المسيحيّة في الإسلام.

وكلُّ المستشرقين درسوا التصوف الإسلامي من الخارج، أما ماسينيون فقد درسه من الداخل أي من خلال تجربته المسيحية- الإسلامية وقناعاته الخاصة وتعاطفه مع الحلاج القائل بوحدة الشهود، وأول من قال في الإسلام: "أنا الحقّ". وهذا ما سما به إلى أعلى مستويات القداسة والولاية ثم ختم حياته بالشهادة.

إن ماسينيون رأى في الحلاج شبيهاً له، كرجل مسيحي له تجربته الصوفية التي وجد فيها ذاته وتعاطف من خلالها مع البشرية المعذبة، كما فعل الحلاج الذي وصل إلى الحقيقة بطريقة المجاهدة النفسيّة والفناء.

وهكذا يقرر ماسينيون أن التصوف مجاهدةٌ ومعاناة واستبطان قبل كل شيء. وهو يوافق المستشرق مرغوليوث MARGOLIOUTH بأنّ في القرآن أسساً صالحة لمنهج صوفي أصيل، بعيد عن التأثيرات الأجنبية.

وهذا لا يمنع وصول أصداء خارجيّة تركت بعض تأثيراتها في التصوف الإسلاميّ جاءت من صوب الشرق الهندوسيّ والأفلاطونية الحديثة. بل إنّ ماسينيون يرى أن هذه الأصداء أبعدت

التصوف الإسلامي عن متناول الجماهير المسلمة ولا سيما حين نادى ابن عربي بوحدة الوجود.

أما تجربة ماسينيون الصوفية فكانت جمعاً بين روحانية القديسين المسيحيين والأولياء المسلمين في منهج التضحية وتحمّل الآلام (والحلاج مثالٌ لذلك) وما عُرف عند المسلمين بالأبدال الذين هم أعمدة الكون يحجبون عن البشر سطوة غضب الإله... إن هذا اللقاء بين البشري والإلهي، الذي هو لقاءٌ بين شاهد الآن وشاهد الدّوام هو نقطة اللقاء العظمى بين المسيحيّة والإسلام التي اكتشفها ماسينيون!

وقد انتُقد ماسينيون بأنه أخذ معطياته من الإسلام السنّي ومصادره، وأهملَ في دراساته المصادرَ الشيعيَّة، ولكنّ هذا غلطٌ وتجنٍ.

فنحن نعلم أنّه أتقن اللغة الفارسية وحاضرَ بها وتواترت، زياراته لإيران ولقاؤه أكابرَ علمائها الدينيين. واعتمد على مؤلّفين شيعيين كالبقلي والشيرازي، ودَرَس النصيريّة في سورية وكتب عنها، وبحث في الغنوصية الإسلامية أي العرفان لدى الشيعة.

كما أورد آراء الشيعة في الحلاج وساق على تقديسهم إياه آراء علمائهم كالطوسيّ، ومُلاّ شدرة شيرازي، كما وجد أن فرق البابيّة والبهائية واليزيدية يقدسونه أيضاً.

وركز جهوده على السيّدة فاطمة، التي كثيراً ما قورنت في الإسلام بالسيّدة العذراء، وعلى قصة المباهلة التي جرت مع نصارى نجران في المدينة بحضور السيدة فاطمة وعليّ والحسن والحسين.

وأبرزَ ما يسمى في الصوفية الإسلامية بالأبدال، كما أبرز دور عليٍّ وفاطمة وسلمان الفارسي في الإسلام والشيعيّة ومن المعلوم أن سلمان يمثّل الثقافة المسيحية، لأنه كان قبل إسلامه يلازم الرهبان ويتلقى عنهم، ثم ذهب ليبحث عن الحقيقة والنبيّ الجديد.. وقرّبه النبي حتى عدّه من آل البيت.

ويعرّج ماسينيون على قضية خروج المهديّ التي يؤمن بها المسلمون جميعاً، ويرى فيها مثيلاً لعودة المسيح المعترف بها أيضاً في الإسلام، ويلتقي المسيح بالمهدي، ويعُمّ العدل والسلام جميع البشر... وعند الشيعة أن الخضر وأهل الكهف السَّبْعة سيعودون على مقدمة جيش المهدي فيدخلون القدس ويلتقون السيّد المسيح..! ويستعين ماسينيون في إثباته إمكانَ البعث والقيامة، بأمثلة موسى والخضر وإيليا والمهديّ والمسيح وأهل الكهف، وهذه كلّها معطياتٌ إسلامية سنية وشيعيّة ومعطيات مسيحيّة.

ولكنّ هذا كلّه لا يخرج بقناعات ماسينيون عن الخطّ السنّي.

فهو يؤمن بأن الإسلام شريعة وروح، لا يلغي أحدهما الآخر وهو طريقةٌ وحقيقة، لا غنى لإحداهما عن الأخرى. ويرى أنّ القرآن والحديث هما مصدرا التصوّف الإسلامي، وأن التصوف سُنيّ، عربيّ، ساميّ، أي إنه أصيل وليس بحاجة إلى التأثيرات الأجنبية. إنّ ماسينيون مع أمة الإسلام الواحدة، ومع الإجماع والسنة، وإنما كان ميله إلى الدراسات الشيعية بمقدار ما تخدم لديه

أطروحة التقارب العقائدي بين الإسلام والمسيحية.

ماسينيون ودراساته في الميزان:

لقد كانت لماسينيون مهمتان: الأولى تنمية المفاهيم المسيحية بين المسلمين، والثانية تغيير نظرة المسيحيين إلى الإسلام، وبهذا يتمّ التقارب بين الجانبين. ولذلك كان كثيراً ما يشارك في احتفالات المسلمين كليلة القدر، وقد يشارك في صوم رمضان ويجعل تلاوة سورة من القرآن ركناً معتاداً في اجتماعات "البدليّة" التي تضم مسلمين ومسيحيين.

ولننتقل الآن إلى بيان موقف الآخرين من أعمال ماسينيون:

لقد كان طلابه يدهشون لسعة إطلاعه وكثرة مصادره وغزارة ما يورده من الأسماء، فكانوا بين مبهور معجب وبين متشكك حذر.

أما العلماء فقد أخذوا عليه مآخذ عديدة منها : 1- جمعه بين السياسة والدين والدراسة العلمية. 2- وتسخيره العلم والبحث لغايات غير علميّة. 3- سطحيَّة نظرته، وبعده عن التحليل، ووقوعه في أخطاء عديدة بسبب التسرّع.

وانتقده زميله هاملتون جبّ GIBB HAMILTON بأن من الصعب وضعَ خطّ فاصل بين دقته العلمية وبين اتجاهاته الشخصيّة وحماسته الذاتية، فقد رفع الحلاّج إلى حدّ نصرنته.

وانتقده إدوار سعيد في تنظيراته وتعميماته الرعناء، ومجافاته التفسير والتحليل حتى غدت بحوثه ركاماً بلا روح، وبأن الزمن تجاوزه لأن العالم الإسلامي يتقدم ويتطور باتجاه العلمانية والتكنولوجيا. وكان عليه أن يساعده على تجاوز جمود الماضي إلى الحداثة المادية الغربية بدلاً من الحفاظ على القيم التقليدية.

وانتقده عمر فروخ والشيخ الإبراهيمي في خلطه بين التصوف والسياسة، وعدَّه بعض العرب والمسلمين طابوراً خامساً للاستعمار.

وانتقده دنيز ماسون D.MASSON وجاك بيرك J.BERQUE في استنتاجاته المتعلقة بفاطمة وسلمان وأهل الكهف.

ورماه علماء الأزهر بعدم فهم الإسلام، واعترضوا على كثير من آرائه، لأن هنالك فرقاً بين الشريعة والتصوف، وأن كثيراً من أشكال التصوف ليس إسلامياً، ورأوا في "البدلية" و"دار السلام" وجهين استعماريين.

وانتُقد بالتركيز على معطيات أهل السنة وإهماله المعطيات الشيعيّة، وتركيزه جهوده في التصوف على الحلاّج وإهماله مَنْ سواه، ولا سيما ابن عربي صاحب وحدة الوجود.

ورفض المسيحيون الكرمليون والدومينيكان أطروحاته حول القرآن والنبوّة والوحي.

وانتقد في أنه كان خادماً للسياسة الاستعمارية والسلطات الحاكمة ولا سيما في مراحله الأولى.

وأنه أراد من خلال الحلاج أن يجذّر في الإسلام ما ليس منه.

وأخيراً لم يكترث الفاتيكان بمنهاجه ولا بنتائج بحوثه، ولكنه ترك له المجال لمتابعة مسيرته واكتفى بالاحتجاج على (البدلية) رسمياً، وطالبه بتقديم إيضاحات عنها.

ولكن هل كانت له إيجابيات؟

الجواب نعم. فقد ألقى أضواء كثيرة على جوانب من التراث الإسلامي والحضارة الإسلامية وشجّع كثيرين من رجال الدين على القيام بدراسات إسلامية. ودعا إلى المقاربة بين الديانتين العظيمتين، واعتراف كلٍ منهما بالأخرى، والتعاون في سبيل خير الإنسان. ولا يخفى أن هذه الناحية لها الآن حضور على الساحة الإسلامية المسيحيّة.

وشجع على دراسة التصوف الإسلامي، وسدّ فراغاً في الدراسات المغربية، وتأثر بروحانيته وإيمانه أساتذة جامعيون ودارسون عديدون. وكان له إشعاع خاص في إيران والأوساط الشيعيّة والأفغانية التقدمية.

وكان له في نطاق السياسة مواقف إيجابية عديدة، مثل دفاعه عن الإسلام والمسلمين والمضطهدين والمحرومين. وقد بيَّنَ خطأ الغرب، ولا سيما فرنسا وإنجلترا، في ازدراء بلاد الشرق الأوسط وشعوبها وطالبهم بالعدل.

وناصَرَ حرّيّة الجزائر، وعودة الشرعية إلى المغرب، والحركة الغاندية الداعية إلى استقلال الهند.

وتعاطف مع الفلسطينيين واللاجئين العرب، ودعا إلى حلّ سلميّ عادلٍ وأدان الصهيونية، وأكد أن سورية هي المفتاح لحل مشاكل المنطقة بسبب دورها القياديّ القومي. وقاوم محاولات الفرنسة واستلاب الشعوب، ومحو اللغة والتراث والتقاليد والدين في شمالي إفريقية. وتعاطف مع السجناء السياسيين والفقراء والمظلومين في كل مكان، وأدان أساليب العنف والكراهية.

وقد جمع سيد حسين ناصر كل الانتقادات التي وجهت إليه وردّ عليها، وذلك في مقالة له بمناسبة "مرور مائة عام على ولادة ماسينيون" وعنوانها: حضور ماسينيون .

وختاماً، يتبين لنا مما سبق أن ماسينيون كان يبدو أحياناً بهيئة العالم وأحياناً بهيئة رجل الدين وأحياناً في شكل السياسي ويخلط بين هذه الوجوه. ومن هنا كانت خطورة مسيرته.

ولم يستطع التأثير لا في الأوساط المسلمة ولا في الأوساط المسيحية، بل ربما لقي الإنكار من الجهتين من حيث أراد أن يجمع بين الحسنيين.

ومع ذلك يجدر بنا قراءة كلٍ ما كتبه وتقويمُه، كما يجب مراجعة كل نتاج المستشرقين والاستفادة من حقائقهم وإمكاناتهم وأحكامهم المنصفة وطرح ما لديهم من المغالطة والزيف.

□□□